أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي

بقلم الدكتور ابو القاسم سعد الله

نعني بالمثقف هنا الانسان العربي الذي بلغ درجة من المعرفة جعلته ينظر الى مجتمعه ، والى العالم كله ، بمنظار واع ، شامل ، ونافذ . وهو بهذا المعنى لا يمثل طبقة بعينها ، ولكنه شخص بلغت به خبرته وذكاؤه الى ان يرتفع فوق مستوى الاقليميات والطبقات والطوائف، ولكن ليس كل مثقف عربي ثوريا ، فهناك المثقفون الرجعيون والبورجوازيون ، والثوريون . ويمتاز المثقف الثوري بان له رسالة قومية وانسانية في الوقت نفسه . فهو لا يرتبط بمصلحة بل بقضية ، وهو حينئذ ، انسان له ضمير قومي وهدف انساني ، والثورة التي يمثلها هذا المثقف لا تعني دائما العنف ، ولكنها تعني بالضرورة التغيير والتمرد على الحالة الراهنة .

المثقف الثوري والشعب

ولكن مهما بلغت انسانية المثقف الثوري فانه يجد نفسه خاضعا لبيئة قومية لم يخلقها ولكنه يتفاعل معها، ولم يشكلها ولكنه يرتبط بمصيرها . ومن هنا تبدأ ازمته الحادة التي تظهر في معناها العميق ازمة انسانية ايضا. رغم ان الوطن العربي يرتبط بعلاقات تاريخية ومصيرية تجعل الوحدة بين اجزائه قدرا وضرورة ، فانه ما يزال يعاني من الانقسامات الفكرية التي نتجت عن تسلطات استعمارية مختلفة المدى . وقد ادى هذا الوضع الشاذ في بعض الاحيان الى عزلة المثقفين ذوي الرسالة الواحدة، واستعمالهم مكرهين لغة الاحتلال للتعبير عن انفسهم . كما ادى الانقسام الفكري في الوطن العربي الى خلق مستويات غير متناسقة في نسبة التعليم ودرجة تقدير الاشياء ، بما في ذلك الفكرة القومية .

امام هذه الحالة غير المتوازية يواجه المثقف العربي الثوري جمهوره . ومن هو الجمهور العربي ؟ (١) فلاحون اميون يعانون من العزلة التي كان قد فرضها الاحتلال الاجنبي او الاقطاع المحلي ، لهم حظ قليل من فكرة الوطن والوحدة والقومية . ومع ذلك فهم حقل خصيب لبث الافكار الثورية لو اتيح الاتصال الحر بين المثقف وجمهوره . و(٢) عمال نصف متعلمين ما يزالون في المرحلة الاولى من التنظيم النقابي وتوحيد الجهود لتحقيق معيشة افضل . غير ان العمال اكثر نضجا واخطر دورا لاتصالهم بالمدن وتأثرهم بالتنظيم النقابي العالمي . و(٣) ومثقفون تكونوا في اكثر الاحيان في مدارس غير قومية لهم افكار رجعية او بورجوازية اصلاحية لا تتفاعل مع متطلبات الواقع العربي التي تستدعي الحسم والسرعة والعملية . ان انفصال هذا القسم الاخير عن الاغلبية الساحقة من الجماهير ــ العمال والفلاحون ــ يساعد على ابقاء الحالة الراهنة ، اي استغلال الاغلبية بالاقلية المحظوظة .

ان ازمة المثقف العربي الثوري تظهر في علاقته بالشعب ، او في طريقة ادائه لرسالته كانسان لا يؤمن بالحالة الراهنة . غير انه يجب ان يكون واضحا ان هذه العلاقة هي علاقة تفاعل وتكامل ، اي ان كلا من الشعب والمثقف الثوري يكمل الاخر : بالاضافة الى ضعف الوسائل المادية وندرة القراء فان هناك عقبات اخرى تقف في الطريق . اولها مشكلة الحرية . ففي كثير من الاحيان لا يستطيع المثقف العربي الثوري ان يعبر عن نفسه بحرية، وان يتصل بجمهوره بطريقة مباشرة . وبالتالي فهو مضطر الى ان يعيش منفيا ، او متواريا ، او سجينا . فهو كانسان متمرد لا يمكنه احيانا ان يقبل نظريات وتصرفات بعض الحكام العرب حتى ولو كانوا يسمون انفسهم «ثوريين». والمثقف لذلك معرض الى الاضطهاد والفصل بينه وبين الشعب لا من الاستعمار والرجعية فقط ولكن ايضا من « الثوريين » الذين يريدون احتكاره وجعله بوقا من ابواقهم . وهكذا فان المثقف الثوري في الوطن العربي يعاني ازمة حادة من فقد الاتصال الحر المباشر مع الجمهور الذي يحتاج اليه في التكوين والتوجيه والقيادة .

المثقف الثوري وانظمة الحكم

في الوطن العربي انواع كثيرة من انظمة الحكم . فهناك النظام المؤمن بالحزب الفردي ، او تعدد الاحزاب، واللاحزبية . وهناك النظام اليساري ، واليميني ، والمعتدل . بالاضافة الى النظام الجمهوري ، والملكي. ومن سوء الحظ ان المثقف الثوري قلما شارك في هذه النظم، وذلك لان اغلبها غير ديمقراطي لانها لا تقوم على ارادة شعبية حقيقية . وازاء هذا الوضع لا يجد المثقف الثوري بدا من التمرد على الحالة الراهنة والتبشير بفكرة جديدة قد تثير الرعب لا في قلوب الرجعيين فحسب بل « الثوريين » ايضا .

في بعض البلاد العربية ذات الطابع الثوري والحزب الواحد يلاقي المثقفون الثوريون ضغطا شديدا لكي «يسايروا» ارادة الحاكم المطلق الذي يريد فرض الثورة « من فوق ». فاذا عارض المثقفون هذه الطريقة المتألهة اتهمهم الحاكم المطلق بالتخريب او بالتعفن الفكري حسبما تقتضيه شعارات الموقف . وهم في ذلك بين امرين : اما ان « يطيعوا » ويلحدوا ، واما ان يستمروا في تمردهم، وبذلك يعرضون انفسهم الى اقسى انواع الاضطهاد . ان المثقف العربي الثوري والحكم « الثوري » ليسا بالضرورة شيئا واحدا ، ذلك انه من حق الاول ان يعارض الاخير في اشكاله وتطبيقاته ، وليس من حق الاخير ان يضطهد الاول لاستقلاله الفكري ونظرته الديمقراطية .

واذا كان واضحا ان المثقف الثوري قد يجد نفسه في خط معارض للخط الذي يتبعه الحكم الثوري فانه بالضرورة سيجد نفسه على طرفي نقيض مع النظام الرجعي والاضطهادي . وبالتالي فانه سيعرض نفسه لمعاملة اسوأ ومصير ابشع . ان من طبيعة الرجعيين الخوف من المثقف الثوري . فهم ، بارتباطهم بالتقاليد ، ومنعهم للحريات الفردية ، وانعزالهم عن الجماهير ، وارتباط مصالحهم بالاجانب ، وايمانهم بالحالة الراهنة ، يسيرون في اتجاه معارض لاتجاه المثقف الثوري . وما دام هذا لا يرضى ببرامجهم ولا بوجوده بينهم فانه مضطر الى النشاط السري او الغربة ، اذا لم يكن حظه اسوأ من ذلك .

المثقف الثوري والتيارات العالمية

يجتاز الوطن العربي مرحلة انتقالية لا تتمثل فقط في تطوره من منطقة زراعية الى صناعية ولكن ايضا في تطوره من مجتمع منغلق الى اخر متفتح . ورغم اختلاف المستويات الثقافية والنظم السياسية فان الوطن العربي يجد نفسه اليوم مفتوحا لعدد كثير من التيارات والايديولوجيات العالمية . والجماهير العربية التي عاشت سنين عديدة منغلقة على نفسها تحت الحكم الاجنبي تواجه الان موجات من الغزو الثقافي دون ان تستطيع هضم الافكار ولا تمحيص المخرب منها والبناء .

ومهمة المثقف الثوري ازاء ذلك صعبة ومعقدة ، لان عليه ان يوائم بين عقيدته القومية ونزعته الانسانية . فهو مضطر من ناحية الى ان يكون « محافظا » بالنظر الى قيمه الاخلاقية والتاريخية ، وهو مضطر من ناحية اخرى الى ارضاء رغبته في تطوير مجتمعه المتخلف . وهذا الدور الثنائي يستلزم بالضرورة حرية الاختيار بين الايديولوجيات العالمية وحرية الاتصال بالجمهور . كما يتطلب ان يكون المثقف الثوري على علاقة متفاعلة ومستمرة مع النضال القومي حتى لا يصبح انسانيا محضا اى فيلسوفا مقطوعا من القاعدة الشعبية .

والحقيقة ان المثقف العربي الثوري يتعرض الى ضغط شديد محلي وخارجي . ان الانظمة المشار اليها في الوطن العربي تجعل مهمته اكثر صعوبة وتعقدا. فهي، خصوصا الرجعية منها ، تسلط على المثقف ألسنة حادة وقوانين جائرة لكي تمنعه من الاستفادة من التيارات العالمية ، ولكي تبقيه اسير التقاليد والخرافات التي تؤمن « بالحق الالهي » و « السلف الصالح » !

اما الضغط الخارجي فيظهر من الحقيقة المرة وهي ان الوطن العربي لا يتمتع بالاستقلال الحقيقي ، الاستقلال الارادي لا السياسي . فما تزال المصالح الحيوية للجماهير العربية مرتبطة بمصالح قوى اجنبية غريبة . وهذه القوى لا تحاول ان تبقى في الوطن العربي بصفتها منتفعة فقط ولكن ايضا باعتبارها مبشرة بمذهب هو في نظرها احسن مثال يجب على العرب ان يحتذوه . ولكي تروج لهذا المذهب تساند العملاء في الحكم ، وتخلق اجهزة الدعاية السامة ، وتؤجر المثقفين لكي يقوموا بدور الممثل. وهكذا نجد اليوم في الوطن العربي احزابا وافرادا لا يمثلون القضية القومية ولكن مصالح قوى اجنبية وتيارات غريبة عن الجماهير العربية .

* ● *

ان اهم العراقيل التي تقف في وجه المثقف العربي الثوري وتمنعه من اداء رسالته على الوجه الاكمل هي التالية : ١) ــ فقدان حرية التعبير والاتصال المباشر بالجمهور ، ٢) ــ اختلاف انظمة الحكم في الوطن العربي ومحاولة بعض المسؤولين العرب تخليد الحالة الراهنة ، ٣) ــ محاولة استغلال المثقف الثوري واستعماله كأداة ترويج لاصحاب الحق الالهي وذوي الحكم الفردي المطلق، ٤) ــ الغزو الثقافي الاجنبي وضعف وسائل مقاومته على الصعيد القومي ، ٥) ــ عدم الثقة في قدرة المثقف العربي الثوري على التفريق بين النافع الجيد وبين الضار المخرب من التيارات العالمية .

ولكي يتخلص المثقف العربي الثوري من هذه العقبات عليه ان يوفر الشروط التالية : ١) النضال لتحقيق رسالته بحرية ، ٢) ــ تحقيق الاستقلال الكامل للوطن العربي والاسراع بالوحدة الشاملة ، ٣) مقاومة الرجعية والديكتاتورية في اي شكل ، ٤) العمل على خلق جو من الثقة والمسؤولية بخصوص الاستفادة من التيارات العالمية ، ٥) ــ القضاء على الاستغلال الاجنبي بجميع صوره في الوطن العربي ، ٦) ــ السعي لتكوين منظمة قومية طلائعية تضم المثقفين الثوريين وتحمي اتجاههم ومكاسبهم.

بذلك يستطيع المثقف الثوري في الوطن العربي ان يؤدي رسالته القومية والانسانية في جو مشبع بالحرية والثقة والتفاؤل والوحدة والتعاون لخير الجماهير العربية.

ابو القاسم سعد الله
استاذ التاريخ بجامعة ويسكنسن
الولايات المتحدة الاميركية